الصدام الحضاري... وصناعة الأعداء
صموئيل هنتنغتون نموذجا.

أ.لعموري شهيدة
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)
د. زروخي اسماعيل
جامعة قسنطينة 2 (الجزائر)

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع العلاقة بين الصدام الحضاري وصناعة الأعداء، هذا الأخير الذي يعدّ من أهم مبرّرات وجود الصدام وكخلفية إستراتيجية له، إذ أنّه وبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار المعسكر الشيوعي، انتاب الغرب عامة وأمريكا خاصة الشعور بالقلق والفراغ الإيديولوجي، ممّا حتّم على صنّاع القرار التنظير للبحث عن عدوّ بديل، حتى تشعر أمريكا بوحدة هويتها واستقرارها.

وما كان ذلك العدوّ الجديد سوى الإسلام، الذين يرون فيه مركّب الشّر والمنافس الوحيد للهيمنة الغربية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة- الصّدام - الصّدام الحضاري- صناعة الأعداء.

Résume :

Notre étude tient le sujet de la relation entre le conflit civilisationnel et la création des ennemis, ce dernier est l une des principales justifications de l existence des conflits on comme son arrier- plan stratégique. A la fin de la guerre froide et l effondrement camp communiste, les occidentame et notamment les américains ont en le sentiment d'inquiétude et d'ansciete et du ville idéologique, ce qui a oblige les décideurs a cherche un nouvel ennemi pour que les Etats- unis ne perd pas son identité et sa stabilité.

Cet ennemi sera seulement l'islam qu'il le considère comme le mal et le seul concurrent de la domination occidentale.

Les mots clés : Civilisation – le conflit – le conflit de civilisation - la création des ennemis.

Abstract:

this study deals with the subject of the relationship between the clash of civilization and industry enemies, the latter which is one of the most important reasons the clash and as a backdrop strategy, since there is after the end of the Cold War and the collapse of the communist camp, stalked the West in general and America special feeling anxious and ideological vacuum, which necessitated the decision makers endoscopy to search for an alternative to the enemy, even America feel the unity of identity and stability.

What was it only the new enemy of Islam, who see it as a composite of evil only competitor to Western hegemony.

Key words: Civilization- clash - clash of civilization - making enemies .

مفاهيم الدراسة: نستعرض الناحية المفهوماتية أو الدلالية للمفاهيم التي تقوم عليها هذه الدراسة، وهي كالتالي:

1_ الحضارة: تعدّدت تعريفات الحضارة وتنوعت بتنوع المجالات التي تدرسها من علم اجتماع، انثروبولوجيا، علم السياسة، فلسفة التاريخ...الخ. ممّا جعل منها مفهوما مركبا وليس من السهل الإلمام بمفهومه الشامل. وفي هذه الدراسة نسلّط الضوء على مفهومين مختلفين للحضارة: الأولى لابن خلدون لكون مفهوم الحضارة عنده يعدّ من المحاولات الأولى للتأصيل النظري للمصطلح في التراث العربي الإسلامي. والثانية لـــ صموئيل هنتنغتون لكون الدراسة متعلقة بأفكاره حول الحضارة.

عبد الرحمان بن خلدون عرّف الحضارة في مقدّمته بأنها « التفنّن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنّق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل»(ابن خلدون، 2004، ص47)، بهذا المعنى تعدّ الحضارة أرقى مرحلة من مراحل تطور المجتمعات البشرية، حيث يحصل فيها جميع أنواع الاكتفاء، فتعيش المجتمعات ترفا فكريا وعمرانيا ، وهو ما يجعلهم يبتعدون عن حياة البدو والحاجة.

إلاّ أنّه يضيف أنّ«الحضارة جيل طبيعي وغاية البداوة، ولكنها آخر أجيال العمران»(ابن خلدون، ص47) ممّا يجعل الحضارة كغاية بمعنيين متناقضين؛ أولهما أنها تمثل خير نتاج المجتمع من صنائع وفنون وعلوم وترف، وثانيهما، أنها بداية الخراب والفساد وما يتبعه من انحلال ونهاية.

أمّا عن مفهوم الحضارة عند هنتنغتون فقد توصّل إلى إمكانية تعريفها على مستويين: المستوى الأدنى وفيه يعرّف الحضارة بأنها كيان وهوية ثقافية.(محمد السعدي، 2008،ص108)، وتعريف آخر شمولي موسع يؤكد من خلاله أنّها أعلى مستوى للتمايز الهوياتي؛ فهي "الحضارة كيان ثقافي، فالجماعات القروية والإقليمية والعرقية والقوميات والجماعات الدينية، جميعها تمتلك ثقافات متميّزة عند مستويات متباينة من التنوع الثقافي. فثقافة قرية في جنوب ايطاليا ربما تختلف عن ثقافة قرية في شمالها، غير أنّ كليهما يشتركان في ثقافة ايطالية مشتركة والتي تميزهم عن القرى الألمانية..." (صموئيل هنتنغتون، 1999، ص106).

أمّا تعريف الحضارة الأعمّ الذي توصّل إليه، يرى فيه أنّ « الحضارة هي الشكل الأعلى للتجمع، والمستوى الأسمى للهُوية الثقافية الذي يحتاج إليه البشر للتمايز عن باقي الأنواع " (Samuel Huntington, 1997, p 40)، وبهذا فإنّ الحضارة هي أرفع مستوى يمكن من خلاله تصنيف البشرية.

2_ الصّدام: أشار "إبراهيم أبو خزام" في كتابه "الحروب وتوازن القوى" إلى الاختلاف القائم بين مفهومي الصراع والصّدام من خلال ترتيب مستوياته إلى درجات ، فالصراع يبدأ في أدنى درجاته بالتنافس، ثم يرتفع إلى نوع من التنازع ، ثم إلى مستواه الأعلى وهو الصّدام في قوله: " غير أن درجات الصّراع مختلفة وأشكاله متنوعة، فهو يبدأ بالتنافس السلمي والتعايش بين الدول في أدنى درجاته، وقد يرتفع نحو الحرب والصّدام الدموي عند الفشل في إدارة الصراع بصورة سلمية" (إبراهيم أبو خزّام، 2009، ص06).

أمّا هنتنغتون، يضيف في معنى كل من الصراع والصّدام، إلى أنّ الصّدام هو صراعا لكنه كونيا "الحضارات هي القبائل الإنسانية، وصدام الحضارات هو صراع قبلي على المستوى العالمي"(صموئيل هنتنغتون،1999، ص36)، أي أنّ الصّدام حسبه، هو تواصل للصّراع القبلي ولكن على نطاق عالمي، بما أنّه ينطلق من فكرة أنّ الحضارات ما هي إلاّ قبائل إنسانية كبرى

وهو هنا، لا يميّز بين المفهومين إلاّ من حيث درجة الشمولية أو من حيث الزّمانية، حيث أنّه في مرحلة الحرب الباردة كان صراعا إيديولوجيا، في حين أنّ ما ميّز المرحلة المعاصرة هو صداما ثقافيا حضاريا.

3_ الصّدام الحضاري: هي نظرية تفسيرية يربط هنتنغتون من خلالها ويفسّر بواسطتها الأحداث والوقائع والنزاعات المتناثرة بين جغرافيات العالم، والتي ترجع لأسباب وخلفيات دينية وثقافية. حيث لم تقف هذه النظرية عند حدود الأبعاد التفسيرية، وإنّما تجاوزتها إلى أبعاد تحريضية تحذّر الغرب من صدام مع بقية الحضارات غير الغربية، هذا ما خلّف العديد من المخاوف حيال هذه النظرية، لكونها تستهدف إنهاء التاريخ الحضاري لجميع الدول والشعوب لصالح حضارة جديدة تعولم الإنسان، وتعتمد على القوة والنفوذ الاقتصادي والسياسي والعسكري(عبد الكريم غلاب، 1998،ص 241).

4_ صنع العدوّ: يمكن أن نعرّف العدوّ تعريفا اجتماعيا، حيث يضمن حالة اجتماعية لخصمه أو لمنافسه، إذ يمكن اعتبار العدوّ هو أنا آخر، هو جزء من متخيّل جمعي خاص بكل جماعة يجب أن نجعلها "غيرية"، تلوّن بالأسود لكي يبدو استخدام العنف شرعيا.

وبهذا تصبح صناعة الأعداء، حيلة تلجأ إليها النظم الدكتاتورية التي تمتهن بامتياز اختراع أو خلق العدوّ بشكل موسمي(بيار كونيسا، 2015،ص35).

طرح الإشكالية: مع اقتراب العالم من القرن الحادي و العشرين وانهيار المعسكر الشيوعي بانتهاء الصراع الإيديولوجي لفترة الحرب الباردة، بادر المنظّرون إلى وضع فرضيات أو نظريات جديدة لتفسير المرحلة اللاحقة _ما بعد الحرب الباردة_ والإستراتيجية التي ستحكمها في المستقبل.

في هذا الإطار ولّدت أطروحة صدام الحضارات والتي نشرها صاحبها "صموئيل هنتنغتون" في مقاله المشهور "صدام الحضارات" صيف 1993بمجلة"foreign Affairs " والتي لاقت رواجا كبيرا وردود أفعال متباينة بين مؤيّد ورافض. ثم أعيد كتابتها على شكل كتاب" صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي" 1996، والذي كشف فيه عن رؤيته المستقبلية لطبيعة العلاقات الدولية والأسس والمعايير الجديدة التي ستتحكّم في هذه العلاقات.

والإشكال الذي يمكن طرحه في هذه الدراسة هو:

ما مضمون أطروحة صدام الحضارات؟ وكيف يمكن اعتبار سياسة صنع الأعداء من أهم المبرّرات التي ساهمت، كخلفية إستراتيجية، في إيجاد هذه الأطروحة؟

إنّ هنتنغتون يقدّم نظريته على صورة فرضية مفادها: أنّ الفكرة الأساسية المحرّكة لأطروحة صدام الحضارات هو تبنيها الصريح لاعتبار الحضارة العامل الجديد الذي سيتحكم في صيرورة العلاقات الدولية. ومنه فجوهر الأطروحة يكمن في كون الحضارات باعتبارها أرقى أشكال التعبير عن الهوية، سيكون لها دور فعال في المستقبل. وأنّ الصراع الحضاري هو الذي سيطبع السياسة الدولية ويكون أحد العوامل الفاعلة في تحديد طبيعة النزاعات القادمة.

يبيّن ذلك في قوله: «...والفرض الذي أقدّمه، هو أنّ المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد(عالم ما بعد الحرب الباردة)، لن يكون مصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول. فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا، وستضل الدول/الأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن النزاعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة. وسيسيطر الصّدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أنّ الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل.»(صموئيل هنتنغتون، 1995، ص 05).

ومنه تقوم فرضية الصّدام على وجه التحديد على الفكرة القائلة أننا في طور جديد من السياسة العالمية ستكون فيه الثقافة هي الباعث الرئيسي للانقسامات الكبرى بين الشعوب. حيث تبرز الهوية الثقافية كفاعل أساسي ليهيكل الصراع الدولي. وبالتالي، فإنّ ظاهرة التصادم بين الحضارات ستحلّ محل الحرب الباردة.(محمد السعدي، 2008، ص14)، و أنّ الخطاب العام للأطروحة يسير إلى اعتبار أنّ الحضارات ستكون هي القوى الفاعلة والمحرّكة للصّراعات.

وفي هذا الشأن يضيف هنتنغتون: «...كانت هذه النزاعات بين الأمراء والدول/الأمم في المحل الأول، نزاعات داخل الحضارات الغربية...ومع نهاية الحرب الباردة تحرّكت السياسات الدولية في مرحلتها الغربية، وأصبح المركز الرّئيسي لها هو التفاعل بين الحضارات الغربية والحضارات غير الغربية»(صموئيل هنتنغتون،1999،ص 14)، وهنا يؤكد أنّ الحرب العالمية التالية إذا وقعت سوف تكون حربًا حضارية.

والى جانب الحضارات بكونها فاعلا أساسيا للصراع، فإنه يربطها بالثقافة، إذ يرى أنّها ستشكّل، في عالم ما بعد الحرب الباردة، عاملا حاسما وموحدا في آن واحد، وهنا يؤكد أنّ السياسة العالمية الجديدة هي حتما سياسات حضاراتية ويسودها الصّدام بالضرورة.

إذن، يعطي هنتنغتون للسياسة العالمية بعدا ثقافيا. وبالتالي، يحدّد خطاب صدام الحضارات المصدر الأساسي للصراع والمتمثل في الهّوية الحضارية، وأنّ الصّدام حتمي بين الحضارات.

ثم يصف هنتنغتون هذه العلاقة الصّدامية بين الحضارات، في عالم ما بعد الحرب الباردة، بأنها لن تكون علاقات سلمية، تعاون أو شراكة بقدر ما يميّزها نوع من العداء، العنف والتباعد (صموئيل هنتنغتون، 1999،ص167)، وبهذا تصبح الهوية الثقافية هي العامل الرئيسي الذي يشكّل عداءات الدولة وصداقاتها، فالاتحاد أو التعاون يحدّده التماثل الثقافي، في حين الصّدام يحدّده التمايز والاختلاف الثقافي .

ولتبرير هذا النموذج نجده يتساءل: **لماذا تتصادم الحضارات؟ أو ماهي أهم الدّوافع لذلك؟**

ليقدّم بعض المبرّرات، كالتمايز الحضاري والخصوصية الثقافية، وكذا الانبعاث الدّيني واللاّتوازن الدّيمغرافي، التي يرى فيها هنتنغتون أنها من أهمّ المبرّرات التي تساهم في تعزيز الصّدام بين الحضارات. و إذا أردنا تسليط الضوء على الخلفية الإستراتيجية كدافع أساسي ومباشر لتبرير منطق الصدام الهنتنغتوني، فإنّنا نجد أنّ ذلك الفراغ الإيديولوجي الذي خلّفه انهيار المعسكر الشيوعي وانتهاء الحرب الباردة ، وزوال الخطر والتهديد الذي كان يواجه الغرب، جعل هذا الأخير يشعر بالقلق ، وعدم الجدوى من وجوده، ذلك أنّ العدوّ السوفيتي منح الحد الأدنى من الوضوح والاستقرار على المستوى الدولي، والحرب الباردة جعلت الغرب أكثر تماسكا ووحدة في الرّؤى الإستراتيجية والخيارات السياسية. لكن بانتهائها، أدّى إلى ما يسمى بفراغ التهديد(محمد السعدي، ص184).

هذا ما جعل هنتنغتون يؤكد أنّ أمريكا ضيّعت الغاية من وجودها بعد انتهاء الحرب الباردة ،في قوله:« إنّ السؤال الأكثر عمقا الذي يهم الدور الأمريكي في عالم ما بعد الحرب الباردة، يتلخص فيما يلي، من دون الحرب الباردة ما هي الغاية من أن تكون أمريكيا»(Samuel Huntington,1997,p17).

ويضيف:« كل من يبحث عن الهوية والوحدة الاثنية هو في حاجة إلى أعداء»(Samuel Huntington, p 16)

وهو هنا يقدم رؤية إستراتيجية للسياسة الخارجية يوجّهها فيها لضرورة إيجاد عدوّ بديل عن العدوّ السوفيتي.

وحسب رأي الكثير من المحلّلين فإن الغرب دخل مرحلة جديدة ، وهي عملية البحث عن عدوّ أو أعداء جدد لملأ الفراغ الإستراتيجي من أجل الحفاظ على هوية ثابتة وواضحة. إذ أنّ الفرد الأوربي لا يفهم ولا يعي ذاته إلاّ من خلال نفي الآخر المغاير له ، أو ما يسمى إثبات ذاته عن طريق إلغاء العدو المختلف عنه ، وفي هذا يقول محمد عابد الجابري «إنّ العقل الأوربي لا يعرف الإثبات إلاّ من خلال النفي . وهذا شيء معروف في الفكر الأوربي منذ القدم ، ففي الفلسفة اليونانية لم يستطع بارمنيدس الكلام عن الوجود إلاّ من خلال اللاّوجود ولا الحديث عن المتناهي إلاّ من خلال اللاّمتناهي .وعندما قام تلميذه زينون الايلي للدفاع عن أطروحاته بنى حججه على فكرة :أنّ كل سلب تعين ، وسيأتي سبينوزا في العصر الحديث ليؤكد العكس فيقول : أنّ كل تعين سلب ، ولم يفعل هيغل شيئا آخر سوى أنه جمع بين فكرة زينون وفكرة سبينوزا ليؤسس الديالكتيك عليهما :كل تعيّن سلب وكل سلب تعيّن ، وهذا النوع من الترابط بينهما هو الذي يصنع التركيب»(محمد عابد الجابري، 1995، ص184).

ومن هنا تظهر مدى تجذّر وقدم فكرة الخصم والنقيض في الفكر الفلسفي الغربي عموما، بدءا من العصر اليوناني إلى العصور الحديثة وصولا إلى العصر الحالي ،حيث لا تتحدّد الهوية إلاّ من خلال سلب الآخر المغاير ، وهو ما يؤكد عليه هنتنغتون في أنّ" الهوية على أيّ مستوى كان، شخصي أو عرقي أو قبلي أو حضاري، تتحدّد دائما مقابل الآخر شخصا كان أو قبيلة أو عرقا أو حضارة مختلفة "(Samuel Huntington,p 139).

إلاّ أنّه وبفعل نهاية الحرب الباردة وغياب العدوّ أصبح الغرب يعيش حالة من القلق والخوف جرّاء هذا الفراغ الذي خلق غموضا في تحديد هويته ، إذ لم يعد العدوّ واضح المعالم وبوجه واحد ، وهو ما عبّر عنه كريستوف ريفان في قوله: «لقد أصبنا بخوف شديد، انهيار العدوّ السوفياتي الذي كنا نعتمد عليه كثيرا منذ خمس وأربعين سنة من أجل تخويف أنفسنا، أدخل الديمقراطيات في كآبة كبيرة»(محمد السعدي، ص190).

لكن السؤال المطروح: **لماذا العدوّ؟ ما الدور الاجتماعي والسياسي الذي يؤدّيه في المجتمعات المعاصرة؟ هل يجب على الهوية أن تبنى بالضرورة ضد الآخر؟**

العدوّ، إذن، هو الآخر، الشر، التهديد، ولا يمكن فصله عن الحياة. كما يمكن لصناعة العدوّ أن ترسّخ الأواصر ضمن الجماعة مهما كان الخطر الحقيقي، كما يمكنها أن تكون مخرجا بالنسبة إلى سلطة تواجه مصاعب على الصعيد الداخلي (بيار كونيسا، ص16).

وبهذا، فإنّ الحرب الباردة أدّت وظائف إيجابية وذات أهمية بالنسبة للغرب الأوربي وأمريكا، سواء من حيث الشعور والوعي بالهوية الموحدة، أو حتى بالنسبة للإستراتيجية الاقتصادية والعسكرية. أمّا بفقدان العدوّ فقد تأجّجت هواجس الانفصال ودخل الغرب في أزمة، وأصبح لا يخشى التهديد الخارجي فحسب، بل التهديد من الداخل و من عمق المجتمع الغربي ذاته، وفي هذا يبيّن إيرفنغ كريستول: « لقد ربحنا الحرب الباردة وهذا جيّد ، وأكثر من ذلك فهو رائع، ولكن هذا يعني أنّ العدوّ بعد اليوم ليس هم بل نحن»(محمد السعدي، ص190).

كما يعبّر "كريستوف ريفان" عن حالة القلق التي يعيشها الوعي الغربي بفعل غياب العدوّ التقليدي بقوله: " لقد أصبنا بخوف شديد. انهيار العدو السوفياتي الذي كنّا نعتمد عليه كثيرا منذ خمس وأربعين سنة من أجل تخويف أنفسنا، أدخل الديمقراطيات في كآبة كبيرة" (محمد السعدي، ص190). وبهذا فإنّ غياب العدوّ انعكس سلبا على الأنا الغربي ممّا جعله يعيش شكلا مفاجئا من الفراغ الايديولوجي.

وحول هذه المخاوف يصف نعوم تشومسكي في كتابه "ردع الديمقراطية" المأزق الأمريكي بعد انتهاء الحرب الباردة بصورة كاريكاتورية لتمثال من الثلج ...بها صورة قلقة لجورج بوش ...وقد كتب تحت تمثال الثلج عبارة:« الحرب الباردة"؟ يعقبها سؤالان: "ألم تكن أبدية؟ ماذا سنفعل الآن؟ إنّها لمعضلة حقيقية» (نعوم تشومسكي، 1992،ص93).

ثم يضيف موضحا الدور الذي لعبه العدوّ في تنظيم الرؤى الإستراتيجية للغرب، وأنّ فقدانه يّحدث بذلك غموضا وصعوبة، في قوله: « ...كان يتم استحضار صورة إمبراطورية الشرّ كلما دعت الحاجة إليها من أجل تسهيل عملية إدارة الاقتصاد في الداخل والتحكم بمقدرات النظام العالمي، لن يكون إيجاد البديل المناسب أمرا سهلا . إنّها لهموم جدّية» (نعوم تشومسكي،ص 93).

وعن الفراغ الذي خلّفه العدوّ السوفياتي للغرب صرّح المستشار الدّيبلوماسي" ألكسندر أرباتوف" للرئيس السوفياتي السابق غورباتشوف وهو يوجّه كلامه للغربيين:« إنّنا نقوم بشيء مرعب حقا لكم... سنقدّم لكم أسوء خدمة، سنحرمكم من العدوّ» (بيار كونيسا، ص 14).

وفي هذا الإطار نجد هنتنغتون، وخوفا منه على المصالح الأمريكية يؤكد على ضرورة إيجاد طرف معادي وخصم للولايات المتحدة الأمريكية، فهو يرى أنّ قيم الديمقراطية والحرية والملكية الفردية للغرب لا قيمة لها في غياب العدوّ، وفي هذا يقول :« إذا لم يكن هناك إمبراطورية شرّ تهدّد هذه المبادئ، فماذا يعني بالفعل أن تكون أمريكيا؟ وماذا سيكون مصير المصالح القومية الأمريكية ؟» (صموئيل هنتنغتون،2006، ص 297).

واضح إذن ، أنّ انتهاء الحرب الباردة كان بالنسبة للغرب ولأمريكا سلاحا ذو حدّين، فهو انتصارا لليبرالية الديمقراطية من جهة ، وهو فراغا إيديولوجيا يهدّد كيان وهوية الغرب من جهة أخرى، وهو ما جعل الحاجة ملحّة

وضرورية للبحث عن عدوّ جديد، قد يكون على شكل صورة واحدة أو عدّة صور. عدوّا جديدا يكون محفّزا لخلق الانسجام والوحدة للدول الغربية، ووسيلة لاستقرار هويتها ولرسم إستراتيجيتها في مقابل وجود خصم ومنافس عنيد وقوي.

ويبدو أنّ الغرب وجد ضالته في الإسلام كحضارة وثقافة ودين، واعتبره العدوّ البديل للشيوعية وهو ما سمّاه "بالتهديد الإسلامي"، وفي هذا يقول الجابري :« إنّ الغرب لم يعد قادرا على التعرف على نفسه بعد انهيار خصمه الشيوعية إلاّ من خلال تنصيب الإسلام كآخر جديد ...يمكّنه من تحديد هويته ايجابيا»(محمد عابد الجابري، ص 187).

ذلك أن العدوّ المثالي بالنسبة لأمريكا ينبغي أن يكون مختلفا عرقيا وثقافيا ، ويملك قوة عسكرية تؤهله لأن يمثّل تهديدا للأمن الأمريكي ، وهي مزايا تتوفر في الإسلام، وذلك نظرا لامتلاكهم أسلحة نووية في التسعينات من القرن العشرين كإيران والعراق وليبيا والعربية السعودية ، وهو ما جعل هنتنغتون يؤكد على هذا العدوّ في قوله :« إنّ الفجوة الثقافية بين الإسلام ومسيحية أمريكا ومذهبها الانجلو- بروتستانتي ، تعزّز من تأهيل الإسلام كعدوّ، وفي الحادي عشر من سبتمبر أنهى أسامة بن لادن بحث أمريكا – وجعل – من الإسلام السياسي عدوّ أمريكا الأول في القرن الواحد والعشرين» (صموئيل هنتنغتون، 2006،ص 302).

هكذا إذن، يلاحظ أنّ سقوط جدار برلين ونهاية الحرب الباردة، كشف الحجاب عن الإسلام كعدوّ مستتر، يعوّض الشيوعية ويهدّد الغرب ، حيث أنّ هذا الأخير ينتابه الكثير من الخوف، و يرى في الإسلام كحضارة وثقافة ودين تهديدا للإسلام.

إذن، فقد اعتبر هنتنغتون الإسلام خطرا على الغرب ، بما يحمله من قيم لا تستطيع المنظومة القيمية الغربية أن تستوعبها أو أن تحتويها، ممّا يجعل حالة الصّدام أكيدة، فالصدام هو ما يبحث عنه الغرب، كما لا يمكنه الاستمرار دون إثارة المشكلات وافتعال الأزمات ، فهو يتنفس الصّراع وفي كل مرة يسعى لخلق أعداء جدد.

هذا ما عبّر عنه أحد الكتّاب في جريدة واشنطن بوست بقوله:« يبدو أنّ الإسلام مناسب لملأ دور الشرّير بعد زوال الحرب الباردة، فهو ضخم ومخيف وضد الغرب ويتغذّى على الفقر والسخط، كما أنّه ينتشر في بقاع عديدة في العالم. لذلك يمكن إظهار خرائط العالم الإسلامي على شاشة التلفزيون بالّون الأخضر، كما كان العالم الشيوعي يظهر بالّون الأحمر» (محمد عابد الجابري،1997 ص187)، فالرّوح الغربية العدائية للإسلام جلية واضحة، يهدف من ورائها الغرب إلى تكريس الهيمنة الأمريكية والحفاظ على قيادة العالم.

ويضيف هنتنغتون، أنّ الحرب الباردة الجديدة ستكون بين الإسلام والغرب، ذلك أنّ التقاليد الثقافية والفكرية للتراث اليهودي والمسيحي يمثل التقدّم والتنوير والعقلانية، على عكس العالم الإسلامي الذي يمثل الشر والظلمات واللاّعقلانية والتعصّب، يقول في هذا :« المشكل الأساسي بالنسبة إلى الغرب ليس هو الأصولية الإسلامية، بل هو الإسلام كحضارة مختلفة معتنقوها مقتنعون بتفوّق ثقافتهم ومهووسون بضعف قوّتهم. المشكل بالنسبة إلى الإسلام ليس هو مركز المخابرات الأمريكية أو وزارة الدفاع، بل هو الغرب، كحضارة مختلفة ممثّلوها مقتنعون بكونية ثقافتهم ويعتقدون أنّ قوتهم وهيمنتهم تمنحهم واجب نشر ثقافتهم عبر العالم»(Samuel Huntington ,p 239).

وعن سؤال وجّه لـ هنتنغتون: هل أنت واثق من أنّ المواجهة القادمة للغرب ستكون مع العالم الإسلامي؟ ولماذا؟ أجاب: " أولا الإسلام هو الأكثر الأديان صرامة خارج العالم المسيحي، ولا يوجد في الإسلام تمييزا بين الدين والدنيا والسياسة، وثانيا هناك شعور عام لدى المسلمين بأنّ الغرب قد قهرهم واستغلّهم لفترة طويلة "(صموئيل هنتنغتون، 1999، ص70) ، وبهذا الجواب يجرّم هنتنغتون الإسلام ويحمّله مسؤولية الحروب والصّدامات الواقعة في العالم، ويجعل من المسلمين دمويين وإرهابيين.

هذا ما يؤكد فكرة الإسلاموفوبيا، والتي تعني ظاهرة الرّهاب والخوف المرضي من الإسلام، بتكـريس نظـرة مرتابة، بل عدائية من جانب الغرب _لاسيّما وهو الوريث الشرعي للإمبراطورية الرّومانية_ حيال الإسلام وأهله. وهو يـُنمّ عن معرفة سطحية للإسلام وجهلا صارخا بحقيقته، وهو ما وقع فيه هنتنغتون في إجابته السابقة.

وفي هذا السياق، يصف "ادوارد سعيد" أطروحة صدام الحضارات بأنّها توحي بخوف الغرب الشديد من الإسلام وتصاعد الموجة الإسلامية، حيث تؤكد الإحساس بالتهديد من أنّ الإسلام يزحف على أوروبا والغرب(إدوارد سـعيد، 2005، ص32). لا سيّما وأنّ المسلمين يُقبلون على التحديث ويرفضون الغربنة.

ثمّ أنّ عداء الغرب للإسلام ليس بجديد، فهو في الواقع جديد قديم قدم الدّين الإسلامي ذاته، إلاّ أنّـه تصـاعدت حدّته في دول الغرب المعاصر بعدما شهدته الولايات المتحدة الأمريكية من تفجيرات في الحادي عشر سـبتمبر2001، والتي أُسندت إلى تنظيم القاعدة الإسلامي.

وبدون شك فإنّ جذور أطروحة صموئيل هنتنغتون حول صدام الحضارات وخاصة مع الحضارة الإسـلامية، تعود إلى مقالة لـــ " برنارد لويس"بعنوان "جذور السخط الإسلامي" والتي نشرها في مجلة "الاتلانتيك مونثلي" سـبتمبر 1990، حيث كانت الملهم الأساسي لـــ هنتنغتون لكتابة مقالته ثم كتابه" صـدام الحضـارات وإعـادة بنـاء النظـام العالمي"(محمد السعدي، ص85).

ويمكن القول أنّ مقالة "برنارد لويس" تُرجع العنف الإسلامي إلى الإسلام في حدّ ذاته معبّرا على ذلك في قوله: " فقد عرف الإسلام فترات نفخ فيها روح الكراهية والعنف بين أتباعه، ومن سوء حظّنا فإنّ جزءا من العالم الإسلامي... لا يزال يرزح تحت وطأة هذا الميراث، ومن سوء حظّنا أنّ غالبية هذه الكراهية والعنف ضدّنا فـي الغـرب... ضـدّ ميراثنا اليهودي المسيحي وضدّ حاضرنا الرّاهن وضدّ امتدادهما العالمي"(برنارد لويس، 1994،ص10).

نلاحظ إذن، أنّ أطروحة الصّدام الحضاري الهنتنغتوني، تعتقد يقينا أنّ هوية العالم الغربي تتحدّد انطلاقـا مـن الوعي بالآخر المغاير عنه في الخصائص الثقافية والمحدّدات الدينية. وإذا كان انتهاء الحرب الباردة أزال خطرا معيّنـا، فإنّ الغرب لا يمكنه الاستمرار وحيدا ولن يشعر بوحدته وتماسكه الاجتماعي والثقافي ما لم يعمد إلى خلق وصنع عـدوّ جديد يحدّد له كيانه المخالف ويوطّد علاقاته الاجتماعية. إذ تجده دائم البحث عن عدوّ منافس عنيد، قويّ سواء في شكل واحد أو في أشكال مختلفة: قد تكون الهجرات الكبرى أو الانفجار الديمغرافي، أو المخدّرات والأسـلحة النوويـة ، أو الصراعات الاثنية أو الأصولية الإسلامية...الخ

إلاّ أنّ هذا الزعم الهنتنغتوني خاصة والغربي عامة، في ضرورة إيجاد عدوّ بديل عـن المعسـكر الشـيوعي وتحديده في الحضارة الإسلامية خاصة، سيخلق مناخا من العداء إزاء العالم الإسلامي بحيث يجعل من هذا الصّدام أمرا حتميا. لاسيّما وأنّه يقرّ أنّ الإسلام والإسلامويين دمويين ينشرون العنف والرّعب في كل مكان، ممّا يؤدي إلى تفـاقم حالات الصراع والصّدام وسوء العلاقات الدولية ، وهو ما نلاحظه اليوم في عصرنا الحالي، من عدم خلوّ أيّ دولـة _تقريبا_ من ثورات داخلية أو خارجية.

لهذا فإنّ، إدّعاء الغرب بضرورة "وجود عدوّ" هي خرافة، وخطأ عميق في الفكر الغربي. ذلك أنّ الرأسـمالية في حدّ ذاتها تشكّل قوة توسّعية تسعى إلى إخضاع العالم كله لسيطرتها، وإجباره على تقليـد الغـرب فـي المجـالات الرئيسية للنشاط الاقتصادي والسياسي، إذ لاشيء يتطلب عدوّا في شكل الشيوعية أو الإسلام أو اليابان أو أي شيء آخر.(فريد هاليداي،1997، ص135).

ثم أنّ الحديث عن التهديد الإسلامي للغرب يُعدّ ادّعاء باطلا إذ القليل من القضايا في العلاقات الدولية التي ولّدت خرافة مثل خرافة التهديد الإسلامي المزعوم... وأنّ هذا القلق التاريخي من الإسلام، إنما هو لغو. فمن السخف النظـر إلى البلدان الإسلامية على أنّها تهدّد الغرب(فريد هاليداي، ص 130).

وبهذا، فإنّه لابدّ من الكفّ عن الإدّعاء بأنّ الإسلام يشكّل تهديدا حقيقيا ضدّ الغرب ، وأنّه لا بدّ من تبنّي صورة ايجابية جديدة عن الإسلام بدل تلك الصورة السلبية اللاّواقعية والمبالغ فيها، أو ما تسمّى بشيطنة الإسلام، حيث لا يتأتّى ذلك إلاّ من خلال الانفتاح الثقافي الحقّ على العالم الإسلامي من طرف الغرب، باعتباره أنا مغاير وفقط، دون تقزيمه أو الاستخفاف به، وكذا تخلّي الغرب عن تلك الرّوح الاستعلائية والمركزية لكي يتسنّى له فهم ومعرفة العالم الإسلامي في صورته الصّحيحة.

وفي السياق ذاته، أكّد "ادوارد سعيد" أنّه " لا تقوم أيّ مقابلة مباشرة بين الإسلام في المصطلح الغربي الرّائج، وبين الحياة الزاخرة بالتنوّعات الهائلة التي يحفل بها عالم الإسلام بسكانه وبحدوده الشاسعة التي تمتد وتشمل الملايين من الأميال المربّعة في إفريقيا وآسيا بصورة رئيسية، وبالعشرات من مجتمعاته ودوله وتواريخه وجغرافيته وثقافاته المتميّزة "(ادوارد سعيد، ص8). أي أنّه يؤكّد على ذلك الفارق الواضح بين ما يتصوره الغرب، أو ما يصوّرونه له في وسائل الإعلام عن الإسلام، وبين واقع المجتمعات والثقافات الإسلامية المتميّزة.

خاتمة: وخلاصة القول، فقد اعتبر هنتنغتون الإسلام خطرا على الغرب ، بما يحمله من قيم لا تستطيع المنظومة القيمية الغربية أن تستوعبها أو أن تحتويها، ممّا يجعل حالة الصّدام أكيدة، فالصدام هو ما يبحث عنه الغرب، كما لا يمكنه الاستمرار دون إثارة المشكلات وافتعال الأزمات ، فهو يتنفس الصّراع وفي كل مرة يسعى لخلق أعداء جدد.

وبهذا فإنّ هذه الدراسة هدفت إلى تبيين العلاقة بين الصدام الحضاري وصناعة الأعداء كإستراتيجية غربية معاصرة لرسم العلاقات الحضارية الثقافية وتحديد الهوية الغربية، الأمريكية خاصة، بالاستمرار في خلق العدوّ، وهذا ما أصبح جليا في نهاية القرن العشرين.

هوامش الدراسة:

1_ إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، ليبيا، الكتاب الجديد، ط2، 2009

2_ إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، تر، محمد عناني، القاهرة، رؤيا للنشر والتوزيع، ط1، 2005

3 _ برنارد لويس، جذور السخط الإسلامي، في الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية، بيروت، دار الجيل، ط1، 1994.

4_ بيار كونيسا، صنع العدوّ أو كيف تقتل بضمير مرتاح، تر: نبيل عجّان، الدوحة، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2015.

5 _عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة، تحقيق، عبد الله محمد الدرويش،ج 2، دمشق، دار البلخي،ط1، 2004.

6 _ صموئيل هنتنغتون، آفاق الصدام، الإسلام والغرب، تر، مجدي شرشر،القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1995

7 _ صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة، مالك عبيد أبو شهيوة، محمود محمد خلف، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، 1999.

8_ صموئيل هنتنغتون، أمريكا الأنا والآخر...من نحن؟ الجدل الكبير في أمريكا، تر، عثمان الجبالي المثلوثي، ليبيا، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ط1، 2006.

9 _ عبد الكريم غلاّب، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998

10_ محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام...والغرب، سلسلة الثقافة اليومية 27، قضايا الفكر العربي 3، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995.

11_ محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.ط1، 1997.

12_ محمد السعدي، مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية،ط2، 2008.

13_ نعوم تشومسكي، ردع الديمقراطية، تر، فاضل جتكر، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، 1992.

14_ فريد هاليداي، الإسلام والغرب، خرافة المواجهة: الدّين والسياسة في الشرق الأوسط، تر، محمد مستجير، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1997.

15_ -Samuel Huntington .Le choc de Civilisations (Paris .Odile Jacob . 1997) .